أخلاق ومعاملات

أسس التعايش والتسامح في الإسلام

د. عبدالحليم بسم الله
أستاذ الحديث بالجامعة السلفية بنارس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

التعايش هو: "تفاعلٌ متبادلٌ بين طرفين مختلفين في العادات أو المعتقد والدين، ويكون في المجتمعات المتنوعة الديانات والثقافات، والتي ينتمي أفرادها إلى أصول مختلفة في الثقافة والدين، فالتعايش يبدأ من الاعتراف بالآخرين والعمل على قبولهم كما هم"(١).

التعايش والتسامح بين البشر دليلٌ على الرقيّ في الدين والعقل والفطرة والأخلاق، والناس في موضوع التعايش طرفان ووسط، فطرف يريد أن يرضي غيره بما يخالف الشريعة الإسلامية، وطرف آخر لم يعرف روح الشريعة الإسلامية ومنهجها في التعايش، فيقع في الغلو والتشدد، والوسط هو أن التعايش مع الغير من روح الشريعة الإسلامية ومنهجها الذي أمره الله عزوجل وأمر به رسوله صلى الله عليه وسلم.

والناس كلهم في هذه الدنيا يبحثون عن السعادة والراحة، ويريدون العيش الهنيء، وفي الشريعة الإسلامية من القواعد والمبادئ والأسس ما يحقّق أن يسعدَ بنو آدم في الدنيا والآخرة، ويتمتّعوا بحقوقهم الطبيعية والمدنية

(١)مفهوم التعايش وضوابطه، للمفتي علي جمعة محمد. تاريخ النشر: ١٥/ ١٢/ ٢٠١٧

والسياسية على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم. وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بعد وصوله المدينة المنورة من معاهدة اليهود كان أولَ تطبيق عملي للدولة الإسلامية في حسن التعايش مع الآخرين من غير المسلمين، ودلالةً على أن الإسلام دين لا ينفي الآخر، وأنه يقرّ أن الاختلاف بين الناس في أشكالهم وألوانهم ومعتقداتهم هو سنة إلهية وحكمة ربانية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١)

ويعتبر التعايش والتسامح دعامةً من دعائم الإسلام، ومبدأً أصيلا من مبادئ خلق المسلمين، وهذه حقيقة ثابتة دلّت عليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو إلى التسامح وتحثُّ عليه، وقد وضع الإسلام مجموعة من المبادئ والأسس، وأمر المسلمين بالتزامها في العسر واليسر، وفي المنشط والمكره، ومن أهمّها ما يلي:

أولا: المساواة بين البشر، وإقرار مبدأ التعايش والتساكن:

لقد دعا الإسلام منذ البداية إلى التجمع والتعايش والتساكن وتبادل المنافع والمصالح بين الشعوب، بعيدا عن أية عصبية جنسية أو عنصرية إقليمية أو نزعة ثقافية، إذ لا فضل لعربي على عجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق أناسا من خشب، وآخرين من ذهب، بل كلهم من أب واحد وأم واحدة فلا مجال إذن للفخر والتفاضل، لذا ألغى الإسلام التمييز بين البشر على أساس الألوان أو اللغات أو الأجناس أو الأعراق، فجعل البشر سواسية كأسنان المشط لا يتفاضلون إلا بالتقوى، قالالله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ

(١)سورة هود: ١١٨

ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أيهاالناس..ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى"(٢)

وبنو آدم كلهم إخوةٌ في الإنسانية، فقد وصف الله تعالى الأنبياء بأنهم إخوة لأقوامهم الذين لم يستجيبوا رغم اختلاف الدين، والمقصود بذلك الأخوّة الإنسانية. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ (٣) وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ (٤) وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ (٥)

وكان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم وعادة أصحابه أنهم كانوا يحترمون الآخرين، حتى كانوا يقومون للجنازة، ولو كان الميت غير مسلم، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: كان سهل بن حنيف، وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما إنها من أهل الأرض أي من أهل الذمة، فقالا: إن النبي صلى الله عليه وسلم مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفسا»(٦)

ثانيا: حرمة دماء الناس وأموالهم وأعراضهم:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧) فكل بني آدم مكرّم، ولهم حق كامل في الحياة الآمنة والمطمئنة ؛ لأن الله هو الذي خلقهم، ووهب لهم الحياة، ولا

(١) سورة الحجرات: ١٣
(٢)أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٨٩) وصحّح إسناده شعيب الأرنؤووط وزملاؤه.
(٣)سورة الأعراف: ٦٥
(٤)سورة الأعراف: ٧٣
(٥)سورة الأعراف: ٨٥
(٦)متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣١٢)، ومسلم (٩٦١).
(٧) سورة الإسراء : ٧٠

فرق في هذا الحق بين إنسان وآخر، ولا تمييز بين لون وجنس أو دين، والإسلام يدعو الناس جميعا لفعل الخير وتجنّب الشر والإفساد في الأرض حتى أنه نهاه عن قتل نفسه مهما كان السبب. وحرّم قتل الآخرين، وعدّ قتل نفس واحدة بغير حق قتل الإنسانية جمعاء، حيث قال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ (١)

ثالثا: حرية العقيدة والدين:

والمراد بها أن يكون لكل فرد في الأمة الحقّ في أن يعتقد ما يراه حقا، وأن تكون له الحرية في تأدية شعائر دينه كما يشاء، وقد احترم الإسلام هذا المبدأ والأساس احتراما كاملا، فحذّرَ أن يكون الإكراه طريقا للدين، ومنع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يُكرهوا أحدا عليه، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾ (٢)وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)وقال مخاطبا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٤)

وقد جاء في سبب نزول الآية الأولى ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ﴾ أن بعض الأنصار أرادوا أن يُكرهوا بعض أبنائهم على الإسلام وهم على دين اليهود فنزلت هذه الآية فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

وحثَّ الإسلام على احترام الآخرين، وحرم على المسلم أن ينال من أحد في شخصيته أو دينه حتى لا يؤدّي ذلك إلى ردّ فعل مضاد قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ (٥)

---

(١) سورةالمائدة: ٣٢

(٢) سورةالبقرة: ٢٥٦

(٣) سورة يونس: ٩٩

(٤) سورة الغاشية: ٢١-٢٢

(٥) سورة الأنعام: ١٠٨

رابعا: تحقيق العدل وإقامة الحدود على الشريف والضعيف

من المبادئ والأسس التي جاء بها الإسلام تحقيق العدل مع الأصدقاء والأعداء، والضعفاء والأقوياء قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ (١) وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ (٢)

وجاء في الحديث الذي روته عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أن قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلّمه فيها أسامة بن زيد، فتلوّن وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟»، فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال:أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، ثم أمر بتلك المرأة التي سَرَقتْ، فقُطِعَتْ يدها.(٣)

خامسا: البِرّ والإحسان إلى المخالفين في الدين:

لقد أكّد الإسلام على ضرورة البر والإحسان إلى المخالفين في الدين،

(١) سورة المائدة: ٨
(٢) سورة النساء: ٥٨

(٣)متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٠٤)، ومسلم (١٦٨٨: ٩)

الذين لم يقاتلوهم، ولم يقوموا بإيذائهم وإضرارهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (١)

وهذه الآية أصل في معاملة غير المسلمين المسالمين، فيجوز للمسلم ممارسة جميع صور البر والإحسان إليهم من الصدقة والهدية والزيارة والعيادة وصلة الرحم والمساعدة وغيرها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه(٢) وجعل الأجر والمثوبة على الإحسان بالحيوانات حيث قال: "في كل كبد رطبة أجر"(٣).

هذه بعض الأسس والمبادئ للتعايش في الإسلام، والمدارس الإسلامية يتعلم فيها الطالبُ هذه المبادئَ والأسسَ للتعايش في بلده ووطنه ومجتمعه مع أهل الديانات والمذاهب الأخرى، ويدرّس فيها المنهج الوسط القائم على احترام الآخرين، البعيد عن العنف والشدة من خلال مقرراتها الدراسية، وبرامجها الثقافية المتنوعة من إقامة الدورات والندوات والمحاضرات والمؤتمرات لكي يتخرج فيها الطالب متحليا بالعلوم النافعة والأخلاق الفاضلة، ويخدم قومه وبلده ومجتمعه على أحسن وجه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

(١) سورة الممتحنة: ٨

(٢)أخرجه مسلم (٢٢٤٤).

(٣)متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٦٣) ومسلم (٢٢٤٤).